تضافر العناصر السردية والوصفية في شعر عمر بن أبي ربيعة

الباحث/ محي ماهر أحمد عبد العاطي

إذا نظرنا لمعاجم اللغة وجدنا أن "(الصفة) كالعِلْم والسَّواد، وأما النحويون فلا يريدون بالصفة هذا، بل الصفة عندهم النعت وهو اسم الفاعل نحو: ضارب، واسم المفعول نحو: مضروب، أو ما يرجع إليهما من طريق المعنى نحو: مثل وشِبه وما يجري ذلك يقولون: رأيت أخاك الظريف فالأخ هو الموصوف، والظريف هو الصفة؛ فلهذا قالوا: لا يجوز أن يضاف الشئ إلى صفته، كما لا يجوز أن يضاف إلى نفسه؛ لأن الصفة هي الموصوف ألا يرى أن الظريف هو الأخ"[1].

وفي محيط المحيط جاء: " وَصَفَ الشئ يصفهُ وصفًا، ووصفه: نَعَته وجلاه بما فيه، ويقال : الصفة : إنما هي من الحال المنتقلة والنعت بما كان في خَلْق أو خُلُق"[2].

ونرى لقدامة بن جعفر في نقد الشعر تعريفًا مختصرًا للوصف، يقول: "الوصف إنما هو ذكر الشئ بما فيه من الأحوال والهيئات"[3].

وهذه الأحوال والهيئات قد تأتي عن طريق الوصف المباشر بذكر صفة الشئ، من مثل (شريف أو دنئ، غني أو فقير، كبير أو صغير، عظيم أو حقير وهلمّ جرا).

وقد تأتي هذه الأحوال وتلك الصفات عن طريق التشبيه والاستعارة أي عن طريق الصور البيانية، وهنا يختلط الوصف بالصورة الأدبية.

وهذا الوصف يكاد يكون حاضرًا في حياة البشر بصورة دائمة، بحيث لا يمكن الاستغناء عنه أو الانفكاك منه، فهو "يلازم الطبيعة البشرية"[4].

وعندما نريد تعريفه– أدبيًا– عن طريق المعاجم، فإننا نجد أنه "باب من أبواب الشعر يقوم على تمثيل الطبيعة، ونعتها بحيها وجمادها، وعلى تمثيل الإنسان ونعته بشكله، وعواطفه، وتصرفاته، وعلى تمثيل العمران، ونعته بصروحه وحدائقه، وآثاره"[5].

وقد اقتضت طبيعة دراسة السرد في الشعر، أن نعني بتوضيح العناصر السردية في إطار القصيدة، ونعني كذلك بتوضيح العناصر الفنية؛ لأن القصيدة نتجت عن تضافرهما، فإذا ما

طالعنا جُلّ قصائد عمر وجدنا أكثرها سردًا، يظهر التضافر بين العنصرين السردي والفني، نجد ذلك في مقطوعته الشعرية التي تقول:

بِـــوَجْرةَ أطْـــلالٌ تَعَفَّـــتْ رُسُـــومُهَا وَأَقْفَـــرَ مِـــنْ بَعْـــدِ الأنِيسِـــقَدِيمُهَا

تَلُـــوحُ عَلَـــى طُـــولِ الزَّمَـــانِ عِرَاصُـــهَا كَمَـــا لاحَ فِـــى كَـــفِّ الفَتَـــاةِ وشُـــومُهَا

وَقَفْـــتُ بِهَـــا والْعَـــيْنُ شَـــامِلَةُ الْقَـــذَى كَعَـــيْنٍ طَرِيـــفٍ مـــا يَجِـــفُّ سُـــجُومُهَا

فَـــذَلِكَ هَـــاجَ الشَّـــوقَ مِـــنْ أمِّ نَوْفَـــلٍ وَذِكـــرَى لِنَفْسٍـــجَمّةً مـــا تَرِيمُهَـــا

فَقَـدْ أَدْرَكَـتْ عِنْـدِى مِـنَ الْـوُدِّ فَـوْقَ مَـا تَمَنَّـــتْ بِغَيْـــبٍ أوْ تَمَنَّـــى حَمِـــيمُهَا

وَإِنْ قَاسَـــمَتْ فـــي وُدِّهِ ذَهَبَـــتْ بِـــه جَمِيعًـــا ، وَلَـــمْ يرْجِـــعْ بِشَـــىْءٍ قَسِـــيمُهَا[6]

فالشاعر يذكر أن ديار محبوبته أصبحت بقايا، وقد خلت من سكانها، فأصبحت مقفرة لا أنيس فيها، تظهر عراص تلك الرسوم كباقي الوشم في كف الفتاة، وقد وضَّح صورة تلك الديار وقد عفت رسومها بقوله: (كما لاحَ فِي كَفِّ الفَتَاةِ وشُومُهَا) . ومعنى البيت مأخوذ من قول "طرفة بن العبد البكري في مطلع معلقته :

لخـــــولة أطـــــلال ببرقـــــة ثهمـــــد تلـــوح كبـــاقي الوشـــم فـــي ظـــاهر اليـــد" [7]

فهو يصف أطلال الديار من خلال التشبيه، وصورة تلك الديار وقد محيت رسومها، ثم أخذ يصف حالته من خلال وقوفه أمامها وقوف الحزين الباكي المتأمل، لا يستطيع أن يمنع

دموعه النزول، وظهر ذلك في قوله: (كَعَيْنٍ طَرِيفٍ ما يَجِفُّ سُجُومُها)، فقد صور لنا التشبيه عينيه وهما تسحّان على خديه سح الغُروب، بعين الذي أصاب عينيه قذى فآلمها، فلا تستطيعان أن تمنعا دمعهما.

ويظهر الوصف من خلال السرد في هذه المقطوعة في قوله: (بوجرة أطلال)، ثم يأتي الوصف المتحرك من خلال السرد في قوله: (تعفت رسومها–أقفر من بعد الأنيس قديمها–تلوح على طول الزمان عراصها– كما لاح في كف الفتاة وشومها)؛ ليبين ما آل إليه حال تلك الأطلال، وقد وقف يبكي تلك الديار، وكذلك يظهر الوصف من خلال الجملة الحالية (والْعَيْنُ شَامِلَةُ الْقَذَى)، ويظهر السرد من خلال قوله: (هَاجَ الشَّوقَ مِنْ أمِّ نَوْفَلٍ)، ثم يأتي الوصف في قوله: (أَدْرَكَتْ عِنْدِى مِنَ الْوُدِّ فَوْقَ مَاتَمَنَّتْ بِغَيْبٍ أوْ تَمَنَّى حَمِيمُهَا)، ثم يأتي السرد في قوله: (وَإِنْ قَاسَمَتْ في وُدِّهِ ذَهَبَتْ بِه جَمِيعًا ، وَلَمْ يرْجِعْ بِشَىْءٍ قَسِيمُهَا)، وهكذا نجد تضافر العناصر الوصفية مع العناصر السردية في تلك المقطوعة.

يظهر مما سبق اختلاط الوصف بالصورة الأدبية، وقد تصل الدرجة في الوصف إلى تمثيل الشئ وكأنك تنظر إليه "أحسن الوصف ما نعت به الشئ حتى يكاد يمثله عيانًا للسامع"[8].

كما أن الوصف قد يقلب السمع إلى رؤية بصرية، فيكون حينئذ أبلغ الوصف "أبلغ الوصف ما قلب السمع بصراً"[9].

ومن نماذج الوصف التي تقلب السمع إلي رؤية بصرية، قوله في وصف محبوبته:

قَـــالَ لِـــي صَـــاحِبِي لِـــيَعْلَمَ مَـــا بِـــي: أَتُحِـــبُّ الْقَتُـــولَ أخْـــتَ الرَّبَـــابِ؟

قُلْـــتُ: وَجْـــدِي بِهـــا كَوَجْـــدِكَ بِالْعَـــذْ بِ إِذَا مَـــا مُنِعْـــتَ طَعْـــمَ الشَّـــرَابِ

مَـــنْ رَسُـــولِي إِلَـــى الثُّرَيَّـــا بِـــأَنِّي ضِـــقْتُ ذَرْعًـــا بِهَجْرِهَـــا وَالْكِتَـــابِ

أَزْهَقَـــــتْ أُمُّ نَوْفَـــــلٍ إِذْ دَعَتْهَـــــا مُهْجَتِـــي، مَـــا لِقَـــاتِلِي مِـــنْ مَتَـــابِ

حِـــينَ قَالَـــتْ لَهَـــا: أَجِيبِـــي، فَقَالَـــتْ: مَـــنْ دَعَـــانِي؟ قَالَـــتْ: أَبُـــو الْخَطَّـــابِ

أَبْرَزُوهَـــا مِثْـــلَ الْمَهَـــاةِ تَهَـــادَى بَـــيْنَ خَمْـــسٍ كَوَاعِـــبٍ أَتْـــرَابِ

فَأَجَابَـــتْ عِنْـــدَ الـــدُّعَاءِ كمـــا لَبَّـــى رِجَـــالٌ يَرْجُـــونَ حُسْـــنَ الثَّـــوَابِ

وَهْـــيَ مَكْنُونَـــةٌ تَحَيَّـــرَ مِنْهَـــا فِـــي أَدِيـــمِ الْخَـــدَّيْنِ مَـــاءُ الشَّـــبَابِ

دُمْيَـــةٌ عِنْـــدَ رَاهِـــبٍ ذِي اجْتِهَـــادٍ صَـــوَّرُوهَا فِـــي جَانِـــبِ الْمِحْـــرَابِ

ثُـــمَّ قَـــالُوا: تُحِبُّهَـــا؟ قُلْـــتُ: بَهْـــرًا عَـــدَدَ الـــنَّجْمِ وَالْحَصَـــى وَالتُّـــرَابِ

حِـــينَ شَـــبَّ الْقَتُـــولَ وَالْجِيـــدَ مِنْهَـــا حُسْـــنُ لَـــوْنٍ يَـــرِفُّ كَالزِّرْيَـــابِ

أَذْكَرَتْنِـــي مِـــنْ بَهْجَـــةِ الشَّـــمْسِ لَمَّـــا طَلَعَـــتْ مِـــنْ دُجُنَّـــةٍ وَسَـــحَابِ

فَارْجَحَنَّـــتْ فِـــي حُسْـــنِ خَلْـــقٍ عَمِـــيمٍ تَتَهَـــادَى فِـــي مَشْـــيِهَا كَالْحُبَـــابِ

غَصَـــبَتْنِي مَجَّاجَـــةُ الْمِسْـــكِ نَفْسِـــي فَسَـــلُوهَا مَـــاذَا أَحَـــلَّ اغْتِصَـــابي؟

قَلَّـــــدُوهَا مِـــــنْ الْقَرَنْفُـــــلِ وَالـــــدُّرِّ سِـــخَابًا، وَاهًـــا لَـــهُ مِـــنْ سِـــخَابِ[10]

يبدأ السرد في القصيدة بجملة القول (قال لي صاحبي)، والصاحب يسأل صاحبه عندما يرى تغيرًا في حاله، حيث يرغب في أن يحفف عنه، فيوجه إليه سؤالًا مستخدمًا الإنشاء الطلبي بصيغة الاستفهام (أتحب القتول أخت الرباب؟)، ويظهر استمرار الحب وتأثيره على عمر من خلال الفعل المضارع (تحب)، ولفظة (القتول) صيغة مبالغة توضح أثر حبه للثريا، وهي صفة للثريا لما تفعله في محبيها، ويوضح عمر السبب وراء ذلك الاستفهام (ليعلم ما بي).

ويظهر اختلاط الوصف بالصورة في البيت الثاني من خلال التشبيه في قوله: (وَجْدِي بِها كَوَجْدِكَ بِالْعَذْبِ إِذَا مَا مُنِعْتَ طَعْمَ الشَّرَابِ)، فالشاعر يصف ويشبه وجده وشغفه وهيامه الشديد بالثريا بالعطشان الذي بلغ به الظمأ مبلغًا، وهو في حاجة شديدة ليروي غلته بالماء العذب، وقد جاءت (إذا الشرطية) و(ما) الزائدة بعدها لتوضيح الصورة وتوكيدها، كما جاءت دلالة العموم التي يحملها الفعل المبني للمجهول (مُنعْتَ) لتبين ما وصلت إليه حاله، وهنا تظهر الثريا بالنسبة لعمر بمثابة الماء – الذي يعادل الحياة – للظمآن.

ثم يأتي الإنشاء الطلبي بصيغة الاستفهام (من رسولي إلى الثريا...؟)، أي: من يصف لها حالي ويخبرها ببغيتي، ليبين حاجته الملحة للقاء، وفي المصدر المؤول المكوَّن من حرف التوكيد (أن) والجملة الفعلية (ضقت ذرعًا) في قوله: (بأني ضقت ذرعًا)، لأوضح الدلالة على ما آل إليه حاله بسبب القطيعة، كما توضح ذلك أيضًا الباء السببة في قوله (بهجرها)، أي: بسبب هجرها، ثم يؤكد على فكرته باستخدام الإنشاء غير الطلبي بصيغة القسم في قوله: (والكتاب)، فهو يقسم بكتاب الله – عز وجل – على ضيقه بهجر الثريا له، وهنا يتضح حذف جواب القسم، فقد دلّ عليه المصدر المؤول قبله.

وقد استجابت أم نوفل لطلب عمر وقررت أن تخبر الثريا بمجئ عمر طالبًا رؤيتها، فعلى الرغم من محاولتها التخفيف عنه، إلا أنها بذلك قد جنت عليه، وهنا يصف عمر ما فعلته أم نوفل من خلال السرد عن طريق الجملة الفعلية (أزهقت أم نوفل مهجتي)، وفي حرف الجر الزائد في قوله: (ما لقاتلي من متاب)، ما يؤكد على ما حلّ به، والجملة الاعتراضية (إذ دعتها) أدت دورها في إظهار الوقت الذي أزهقت فيه روحه، وهنا المفارقة العجيبة، فقد ألح في الطلب على

اللقاء لأنه ضاق ذرعًا بسبب هجرها؛ لكي تقر عينه برؤيتها ووصالها فيستريح، لكنَّ هذا ديدن عمر في كثير من قصائده، فحاله في الوصال كحاله في الفراق.

ثم يأتي مشهد اللقاء فنرى وصفه للثريا يتضح من خلال السرد عن طريق التشبيه القصصي (أبرزوها مثل المهاة تهادى)، ليظهر الثريا وكأنك تراها، وهنا يبدو من خلال ضمير الجمع في الفعل الماضي (أبرزوها) دور الشخصيات المساعدة، فليست أم نوفل بمفردها، وإنما هناك غيرها ممن له دور مساعد في اللقاء من الشخصيات النسائية، وقد يكنّ من الجواري فيعطي ذلك انطباعًا بالترف والثراء الذي تعيش فيه الثريا، وهنا يظهر الوصف المتحرك من خلال الجملة الحالية (تهادى)، في تبختر ودلال، ويظهر الوصف حسنها كما يظهر حسن أترابها (خمس كواعب أتراب)، وهي صفة لنساء أهل الجنة.

ويبين عمر أن رغبته في لقاء الثريا لا تقل عن رغبتها فيه، من خلال سرعة استجابتها لطلبه، حيث يقول: (فأجابت)، والفاء هنا للسرعة، والتشبيه القصصي في قوله: (كما لبّى رجال يرجون حسن الختام) يصف سرعة استجابتها لطلبه، فقد صور سرعة استجابتها لطلبه بصورة من يسارعون في التوبة والعمل الصالح رجاء حسن الختام، ثم يأتي الوصف من خلال الجملة الحالية (وهي مكنونة)، ليبين أنها كالجوهرة المكنونة، التي لا تظهر إلا لمن يعرف قيمتها، ثم تأتي جملة الصفة (تحير منها في أديم الخدين ماء الشباب)، لتمعن في الوصف، فماء الشباب يجري في خدها، وفي تقديم شبه الجملة (في أديم الخدين) على الفاعل (ماء الشباب)، والتصوير الاستعاري لماء الخدين بشخص يتحير من حسنها ما يزيد الوصف جلاء ووضوحًا وتأكيدًا على حسنها الذي يزينه الصبا ورونق الشباب.

ويأتي الوصف من خلال التشبيه (دمية)، ويبدو الاهتمام بوصف محبوبته من خلال حذف المبتدأ والتقدير (هي دمية)، فهي كالدمية في الحسن والبهاء، ومما يزيدها بهاءً وحسنًا وصفه للدمية بشبه الجملة (عند راهب ذي اجتهاد)، وكذلك وصفه عن طريق الجملة الفعلية (صوَّروها في جانب المحراب)، وفي هذا الوصف تأكيد على حسنها وبهائها، وأنه ليس له مثيل.

ثم يدور حوار بينهن وبين عمر، فيسألنه (تحبها؟) أي: أتحبها، وهنّ هنا إنما يسألنه، رغبة في الحوار معه والاستماع لما يقوله، بل والاستمتاع من خلال الحوار معه، فيرد عمر قائلًا: (بهرًا) أي: غلبني واستولى على قلبي، وفي هذا المصدر الصريح (بهرًا) ما يصف حبها

له ومدى تمكن ذلك الحب من قلبه، ويأتي الوصف من خلال التصوير فحبه لها لا يمكن وصفه لأنه كعدد (النجم والحصى والتراب)؛ ليظهر فكرته.

ويستكمل لوحته في وصف الثريا وما عليه من حسن، من خلال التشبيه (حسن لون يرفٌ كالزرياب)، فهو يصور حسن لونها ورونقه ببريق الذهب ورونقه، الذي يلمع فيجذب الأنظار ويشدها إليه، ويظهر السرد من خلال الوصف في الجمل الفعلية (تحبها – شبَّ – يرفٌ)، ثم نجد الوصف في قوله: (أذكرتني من بهجة الشمس)، فهو عندما رآها تذكر الشمس، إذن فهو في حاجته لها وتأثيرها فيه كحاجة الناس للشمس وضوئها عندما تطلع بضوئها وحسنها فتبدد الظلام والسحاب.

لكن محبوبته تتميز وتتفرد عن الشمس بتبخترها ودلالها، فعندما أطلت عليه تمايلت في تبختر ويتضح ذلك من الفعل السردي (فارجحنت)، ويتضح الوصف من خلال الحال شبه الجملة (في حسن خلق عميم) كما يتضح الوصف المتحرك من خلال الجملة الحالية (تتهادى في مشيها)، ويتضح الوصف من خلال التشبيه القصصي (تتهادى فيمشيتها كالحباب)، وهذا الوصف يظهر مدى خفتها ورشاقتها، فهي كالحباب أي الثعبان عندما يسير وقلما يشعر به أحد.

ثم يأتي الوصف من خلال السرد في قوله: (غصبتني مجَّاجة المسك نفسي)، فهو يتساءل (ماذا أحلَّ اغتصابي؟)، ثم يختلط الوصف بالصورة من خلال السرد، فقد ألبسوا الثريا قلادةً من القرنفل والدر، وخصص تلك القلادة المميّزة بتقديم شبه الجملة (من القرنفل والدر) على المفعول به الثاني (سخابًا)، وهكذا نجد تضافر العناصر الوصفية مع العناصر السردية في هذه القصيدة.

فنراه يقول في وصف إحداهن:

لَيْـــتَ هِنْـــداً أنْجَزَتْنَـــا مَـــا تَعِـــدْ وَشَـــفَتْ أنْفُسَـــنَا مِمَّـــا تَجِـــدْ

وَاسْـــتَبَدَّتْ مَـــرَّةً وَاحِـــدَةً إِنَّمَـــا الْعَـــاجِزُ مَـــنْ لَا يَسْـــتَبِدْ

زَعَمُوهَـــا سَـــأَلَتْ جَارَاتِهَـــا وَتَعَـــرَّتْ ذَاتَ يَـــوْمٍ تَبْتَـــرِدْ

أَكَمَـــــا يَنْعَتُنِـــــى تُبْصـــــرِنَنِى عَمْـــــــــرَكُنَّ اللهَ أمْ لَا يَقْتَصِـــــــــدْ

فَتَضَـــــاحَكْنَ وَقـــــدْ قُلْـــــنَ لَهـــــا : حَسَـــنٌ فـــى كُـــلِّ عَـــينٍ مَـــنْ تَـــوَدْ

حَسَـــــداً حُمِّلْنَـــــهُ مِـــــنْ شَـــــأْنِهَا وَقَـــدِيمًا كَـــانَ فـــى النّـــاسِ الْحَسَـــدْ

غَـــــادَةٌ تَفْتَـــــرُّ عَـــــن أَشْـــــنَبِهَا حِيـــــنَ تَجْلُـــــوهُ أقَـــــاحٍ أَوْ بَـــــرَدْ

وَلَهـــــا عَيْنَـــــانِ فـــــى طـــــرْفَيْهِمَا حَـــوَرٌ مِنْهَـــا ، وَفـــى الْجِيـــدِ غَيَـــدْ

طَفـــــــلَةٌ بَـــــــارِدةُ الْقَـــــــيْظِ إذَا مَعْمَعَـــــانُ الصَّـــــيْفِ أَضْـــــحى يَتّقِـــــدْ

سُـــــخْنَة المَشْـــــتَى ، لِحَـــــافٌ لِلْفَتَـــــى تَحْـــــتَ لَيْـــــلٍ حِـــــينَ يَغْشَـــــاهُ الصَّـــــرَدْ

وَلَقَـــــدْ أَذْكُـــــرُ إذْ قِيـــــلَ لهَـــــا وَدُمُـــــوعِى فَـــــوْقَ خَـــــدِّى تَطَّـــــرِدْ

قُلْـــتُ : مَـــنْ أنْـــتِ؟ فَقَالَـــتْ : أَنَـــا مَـــنْ شَـــــفَّهُ الْوَجْـــــدُ وَأَبْـــــلاهُ الْكَمَـــــدْ

نَحْـــنُ أَهْـــلُ الْخَيْـــفِ مِـــنْ أَهْـــلِ مِنًـــى مَـــــا لِمَقْتُـــــولٍ قَتَلْنَـــــاهُ قَـــــوَدْ

قُلْـــــتُ : أهـــــلاً، أَنـــــتُمُ بِغْيَتُنَـــــا فَتَسَـــــمَّيْنَ ، فَقَالَـــــتْ : أَنَـــــا هِنْـــــد

إِنَّمَـــــا ضَـــــلَّلَ قَلْـــــبِى فَـــــاجْتَوَى صَـــــعْدَةٌ فـــــى سَـــــابِرِىٍّ تَطَّـــــرِدْ

أَنمَـــــا أَهْلُـــــكِ جِيـــــرَانٌ لَنَـــــا إِنَّمَـــــا نَحْـــــنُ وَهُـــــمْ شَـــــئْ أَحَـــــدْ

حَـــــدَّثُونَا أَنَّهَـــــا لِـــــى نَفَثَـــــتْ عُقَـــــداً ، يَـــــا حَبَّـــــذَا تِلْـــــكَ الْعُقَـــــدْ

كُلَّمَـــــا قُلْـــــتُ : مَتَـــــى مِيعَـــــادُنَا ؟ ضَحِـــكَتْ هِنْـــدٌ ، وَقَالَـــتْ : بَعْـــدَ غَـــدْ[11]

وفي دالية هند نجد تضافر العناصر الوصفية مع العناصر السردية، حيث يفتتح عمر السرد بالإنشاء الطلبي (ليت هندًاأنجزتنا ما تعد)، فهو يتمنى أن تفي هند بوعدها، وكذلك في (وشفت أنفسنا مما تجد)، بينما يظهر السرد في (زعموها سألت جاراتها)، وأيضًا في (وتعرت ذات يومٍ تبترد)، ونجد عمر من خلال السرد يبالغ في وصف مفاتن هند الحسية (أكما ينعتني تبصرنني)، فهي تسأل جاراتها عندما تعرت أمامهن، تريد أن تعرف من صويحباتها أهي كما وصفها عمر أم أنه يبالغ في وصفها، مقسمة عليهن (عمركن الله أم لا يقتصد).

ثم يأتي السرد من خلال الحوار في قوله: (فَتَضَاحَكْنَ وَقدْ قُلْنَ لَها :حَسَنٌ فى كُلِّ عَينٍ مَنْ تَوَدّ)، ويظهر الضحك المصطنع من خلال الفعل (تضاحكن) مدى الحسد في قلوب صويحباتها،ثم يأتي الوصف لهند، فهي كما يصفها (غادة تفتر عن أشنبها حين تجلوه أقاحٍ أو برد)، فهي فتاة حسناء، تظهر عندما تبتسم عذوبة أسنانها وبردها ورقتها.

ويأتي الوصف الساكن لعيني هند من خلال الجملة الاسمية (ولها عينان في طرفيهما حور)، ليظهر جمال العينين، وأيضًا الوصف الساكن لعنقها (وفي الجيد غيد)، ليظهر رشاقتها، ومن خلال الوصف باستخدام الجمل الاسمية ما يوحي بثبات واستمرار تلك الصفات لهند، فهي

(طفلة باردة القيظ)، تظهر البرودة في جسدها الناعم اللين وقت الحر الشديد، وهذا الوصف الحسي لهند في زمن الصيف، يقابله سخونة الجسد في زمن الشتاء (سخنة المشتى)، تغني الفتى عن الغطاء في جوف ليل الشتاء الطويل.

ويأتي السرد من خلال الأفعال (أذكر – قيل – تطرد – قلت – فقالت – شفَّه – أبلاه)، ثم يأتي الوصف بالجملة الحالية (ودموعي فوق خدي تطَّرد) فهو هنا يروي وقت أن قابل هندًا مرة فسألها عن نفسها، فإذا هي تصف نفسها من خلال الجملة الاسمية (أنا من شفَّه الوجد وأبلاه الكمد)، ثم تُعرّف بنفسها فهي من أهل الخيف في منى من نساء يقتلن بحسنهن وبهائهن وسحرهن، ولا يُقتَص منهن على ذلك.

وهنا يجد عمر ضالته، فيرحب بها في حوارٍ جرى بينهما قائلًا: (أهلًا أنتم بغيتنا)، ثم يسألها عن اسمها (فتسمين)، وتستجيب هند لطلبه معرفةً بنفسها في غير تحفظ (أنا هند)، ثم يأتي السرد مختلطًا بالوصف في قوله: (إنما ضلل قلبي فاجتوى صعدة في سابريٍّ تطَّرد)، فمحبوته بحسنها وتخايلها في ثيابها الحسنة إنما ضللت قلبه وأصابته بالوجد، ثمّ يبين من خلال السرد العلاقة القوية التي تربطه بأهلها، فهم وعمر شيء واحد، ويؤكد على ذلك بتكراره لأداة القصر (إنما) التي تفيد التخصيص والتوكيد مرتين في نفس البيت، في قوله: (إنما أهلك جيران – إنما نحن وهم شيء أحد)، وهو وصف ساكن من خلال الجمل الاسمية.

ويستمر السرد ليبين أثر هند على شاعرنا، (حدَّثُونا أنها لي نفثت عُقدًا)، وواو الجماعة في الفعل الماضي (حدَّثونا) تعطي إيهامًا بواقعية الحكي، كما أن التضعيف في الفعل (حدَّث) يوحي بذيوع الأمر بأن هندًا إنما سحرته، وهو يمتدح هذا السحر بل ولا يريد أن تنفك عقده (يا حبَّذا تلك العقد)، ويُظهر السرد تهربها من وعودها، فهي لا تنجزها، مما يضني عمر ويتعبه، فعندما يسألها عن ميعاد يلتقيان فيه، تتهرب مسوفةً وعودها يومًا بعد يوم.

وأما عن عناصر الحكي، فقد توافرت من شخصيات وحدث وزمان ومكان، وتظهر الشخصيات الرئيسة في الحكي متمثلةً في البطلين (عمر وهند)، ويظهر الراوي وهو (عمر)، عندما قدّم للحكي، بالحديث عن هند وصويحباتها وقت تعرت لتبترد من شدة القيظ، بينما تظهر شخصية هند وتبرز بشكل جليّ يطغى على السرد، وقد وصفها عمر من خلال السرد وصفًا حسيًا أظهر جمال جسدها، ووصفًا معنويًا نفسيًا أظهر هدوءها واتزانها.

يبدو من خلال الوصف الحسي والمعنوي لشخصية هند أنها تعاني مما يمكن أن نسميه أزمة الظهور، عندما عمدت إلى التعري أمام صويحباتها، وهنا يبدو تضخم الأنا من خلال إكثراها من استخدام ضمير المتكلم (ينعتني – تبصرنني – أنا – نحن – قتلنا).

الشخصيات الثانوية فقد جاءت مقتصرة على صويحبات هند، اللاتي وصفهن عمر بالحاسدات لها، وقد ظهر دورهن عندما تعرت تريد أن تبترد، فهن – بطبيعة الأنثى وعرائزها – لا يرونها كما نعتها عمر.

وقد ساعدت هذه الشخصيات على نمو الأحداث وتتابعها وتطورها، وساعد الحوار أيضًا في تنامي السرد من خلال أفعال القول، فقد بلغت في ثمانية عشر بيتًا تسعة أفعال (سألت – قلن – قيل – قلت – فقالت – قلت – فتسمين – قلت – وقالت)، توزعت هذه الأفعال بين هند وعمر وصويحباتها.

ولا تتضح معالم المكان من خلال السرد، حيث لم يصفه السارد وصفًا يحدد معالمه، فقد يكون غدير صغير في مكان مستتر كحديقة مثلًا، فلا تتعرى المرأة في مكانٍ عامٍ يظهرها للرجال، ومن المحتمل أن يكون في موضع ما عند تأدية مناسك الحج، فهي كما قالت من (أهل الخيف من منى).

والزمان ليس محددًا تحديًا واضحًا في تضاعيف السرد، لكنه كان في فصل الصيف، فقد كان اليوم شديد الحر، مما قد يدفع الناس لطلب البرودة، كما حدا بهند إلى طلب الابتراد للتخفيف من شدة القيظ.

وقد ظهر في القصيدة كما بينا تضافر العناصر السردية والعناصر الوصفية، في وضوح تام.

(1) الرازي:مختار الصحاح، دار الفكر، دار القرآن، 1392هـ، 1972م، بيروت، ص 724، 725.

(2) بطرس البستاني:محيط المحيط،المجلد الثاني، مادة (و.ص.ص).

(3) قدامة بن جعفر:نقد الشعر،طبعة مكتبة الكليات الأزهرية، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ص130.

(4) إيليا الحاوي: فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت ط3، 1980م، ص7.

(5) الرائد: معجم لغوي عصري، مادة (و.ص.ف).

(6) محمد محيي الدين عبد الحميد: شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي، الطبعة الثانية، مطبعة السعادة، 1380هـ- 1960م، ص 220.

(7) نفسه، رقم (3) فيالهامش، ص220.

(8) نفسه، ص 424.

(9) نفسه: ج2، ص295.

(10)نفسه، ص430، 431، 432.

([11])نفسه، ص320، 321، 322 ، 323 .